مصاب العرب والعربية

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض لدى المملكة العربية السعودية

روّعت الأمة العربية ليلة الخميس حادى عشر ربيع الأول بنعى علم من أعلام لغة العرب ، وأديب نابغ من أدبائها ، وكاتب مبدع من كتابها . فجعت أمة العرب فى ابن بارّ منحها قلبه ولسانه وقلمه عشرات السنين ؛ فما حلّ بها خطب ، أو حز بها أمر إلا تصدى له ينصر أمته ، ويرمى عدوها بنيران من الكلم ، يرمى بها عن قلبه ولسانه وقلمه . وما اتهم العرب متهم ، أو ازدرى تاريخهم مزدر ، أو تجنى على نعتهم متجن ، إلا انبرى يشيد بالعرب وتاريخ العرب ولغة العرب دفاع ذى الحفاظ الحر العارف الثبت . وما كتب كاتب فجار عن القصد فى كلمة من العربية أو قاعدة من قواعدها أو أخطأ فى رواية من الشعر أو النثر إلا سارع يرده إلى الصواب ، ويقيمه على المنهاج . وهو فى كل هذا لا يدعى ولا يزهى ولا يجور ولا يفخر بل كثيراً ما كان يخفى نفسه باسماء يستعيرها وإن دل عليه أسلوبه ، ونادت عليه طريقته .

وما ضمّ نديه جماعة من الأدباء — وما كان أشد حرصه على لقاء الأدباء — إلا أفاض فى حديثه ودل على تمكنه فى الأدب وسعة روايته ، وقل أن ينصرف جليسه إلا بجديد يستفيده فى اللغة أو الأدب .

ما أحسب القارىء إلا قد أيقن أنى عنيت مدره العربية ، الذائد عنها ، والمجاهد لها محمد إسعاف النشاشيبي رحمه الله رحمة واسعة .

فمن شاء فليقرأ كلمته عن اللغة العربية التى نشرها قبل عشرين عاماً ، ومن شاء فليقرأ كلمته عن شاعرنا شوقى وكلمته عن المعرّى ، وخطبته عن صلاح الدين فى ذكرى موقعة حطين . ومن شاء فليقرأ رثاءه لابراهيم هنانو ولعبد المحسن السعدون ، ومن شاء فليقرأ غير هذه من آثاره ليعرف أى قلب كبير فجع به العرب ، وأى قلم فياض صوال حرمته العرب . وأى مدد فقدته الأمة العربية وهى فى حومة الوغى .

وما عهد القراء بعيد بهذه النقل التى والى نشرها فى مجلة الرسالة منذ سنين فعرف بطرف من تاريخنا ، ونوادر من أدبنا ، وغرائب من سيرنا . فلما ثارت الثائرة فى فلسطين رأينا نقله فى آيات الجهاد وأخبار المجاهدين لا ندرى أجمعها بديهة أم كان لهذا اليوم أعدها . ولقد مات رحمه الله وهو ينشر هذه الكلمات تقبيناً للمجاهدين وتوهيناً للباغين .

وكان ، طيب الله ثراه ، نسيج وحده ، فى كتابته وخطابته لا يتقيل أحداً ولا يشبهه أحد . إنما كان صورة نفسه ، وترجمان فطرته ، ووحى نبوغه وعبقريته .

وحسب الإنسان أن يكون صورة متميزة ، ونجزة مستقلة وأكثر الناس كما قال أبو الطيب :

فى الناس أمثلة تدور حياتها كمماتها وممماتها كحياتها

***

وكان محمد إسعاف ، طاب مثواه ، خلقاً من الأدب والمودة والوفاء يحرص على أصدقائه ويبالغ فى إكرامهم والاحتفاء بهم ، وكان إلى ذلك أبياً متجبراً ثائراً إن سيم خسف ، أو عرض أحد لكرامته ، أو توهم أن أحداً يحاول الازدراء به . هنالك يتجلى العربى الأبى فيما ورث من أخلاق العرب ، وما أشربته نفسه من تاريخ العرب وأدبهم .

وكان ، رحمه الله ، يحرص فى بلده على أن يلقى كل أديب يمر به ، ويرى فرضاً عليه أن يحتفى به ويؤنسه ويدعوه إلى داره . وكم كانت داره ندوة الأدباء ومجمع العلماء . وقد قال فيها بعض أصدقائه : « ولهذا شدتها على الجبل وفى ملتقى السبل ، علماً على علم ، ورابة المروءة والكرم » .

لقد عظمت فجيعة إسعاف على كل من عرفه حق المعرفة ، وتبين الفراغ الذى خلفه هذا العربى العبقرى . وإن مصيبة العرب كلهم فيه لكبيرة ، وإن خسارة اللغة والأدب بفقده لفادحة : ولكن الرجل ترك فؤاده ولسانه وقلمه فى هذه الآثار الخافقة النابضة التى يقرأ فيها كل عربى وكل متأدب بأدب العرب ، علم إسعاف ، وأدب إسعاف ، وحماسة إسعاف ، وجهاده لقومه .

وبعد فحسب الرجل أن جعل مثله الأعلى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجعل إعظامه وإجلاله ديدنه وهجيراه . ولقد رأيت فى